دكتور يوسف القرضاوي

موقف الإسلام العقدي
من كفر اليهود والنصارى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

obeikandl.com

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٦٨٥١

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه ومن بهم اقتدى فاهتدى.

(أما بعد)

فهذه الرسالة أردت بها تصحيح مفهوم عقدى، التبس على بعض الناس، وسألنى عنه أكثر من سائل، وناقشنى فيه منذ سنوات كاتب مسلم معروف، كان فى ذهنه شبهات حوله، وقد زالت حين أوضحتها له.

وقد عشنا حتى رأينا البدهيات العقدية يغشاها الضباب والاضطراب، حتى تختلط وتلتبس على بعض العقول، فإن كفر اليهود والنصارى من (المعلوم من دين الإسلام بالضرورة) كما هو معروف.

ولكنا غدونا فى زمن عملت فيه الفتن الفكرية عملها، حتى أوشكت أن تحول القطعيات إلى محتملات، أو هكذا تحاول.

ومن هنا عنيت ببيان هذا الأمر، والرد على الكاتبة التى أثارته فى مقالة لها فى إحدى صحف قطر، تعليما للجاهل وتبصرة، وتنبيها للغافل وتذكرة، وإفحاما للمعاند المكابر، وإقامة للحجة عليه، ليهلك من هلك عن بينة، ويحى من حىَّ عن بينة.

وقد بينت أن كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يعنى أنهم ملاحدة منكرون للألوهية، فليس هو كفر إلحاد وجحود بالله تعالى ولقائه ووحيه. ولكنه كفر تحريف وتبديل للدين، وتشويه لعقيدة الألوهية والنبوة.

وأننا نعتقد كفرهم بديننا، كما يعتقدون هم كفرنا بدينهم. وهذا من حقهم، كما هو من حقنا.

وأنهم – مع هذا – لهم منزلة خاصة، باعتبارهم أهل دين سماوى فى الأصل، ويشاركونا فى مجمل الإيمان بالله وبالوحى وبالدار الآخرة، وبعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية.

ولهذه المنزلة أجاز لنا الإسلام أن نأكل ذبائحهم، ونتزوج نساءهم، مع اعتقادنا بكفرهم، وهذه قمة فى التسامح مع المخالف.

وقد غرس الإسلام فى عقلية كل مسلم مفاهيم أساسية للتسامح، لم يرق إليها أى دين من الأديان، بيناها بإجمال، ليعلم من لم يكن يعلم: أن الاعتقاد بالكفر لا يناقض التسامح أبدا.

أسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة، ويزيح بها الغشاوة عن العيون حتى ترى، وعن العقول حتى تفقه. والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.

الدوحة { صفر الخير ١٤٢٠ هـ / يونيو ١٩٩٩ م

يوسف القرضاوى

موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى

الحد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

(أما بعد)

فإن من أخطر القضايا التى نبهت عليها فى أكثر من كتاب لى: محاولة خصوم الفكر الإسلامى التشكيك فى (المسلّمات) وبذل الجهد فى تحويل (اليقينيات) إلى (ظنيات) و (القطعيات) إلى (محتملات) قابلة للأخذ والرد، والجذب والشد، والقيل والقال.

وحسبهم الوصول إلى هذه النتيجة (زحزحة الثوابت) أو مناطحتها بغية (تذويبها) حتى لا تقف سداً منيعاً أمام الذين يريدون أن يهدموا حصون الأمة، أو على الأقل: يخترقوا أسوارها.

وقد وجدنا فى عصرنا من يشكك فى تحريم الخمر أو الربا، أو فى إباحة الطلاق وتعدد الزوجات بشروطه، بل من يشكك فى حجية السنة النبوية، بل وجدنا من يدعو إلى أن نطرح علوم القرآن كلها، وكل مواريثنا من الثقافة القرآنية، ونلقيها فى سلة المهملات، لنبدأ قراءة القرآن من جديد قراءة معاصرة، غير مقيدة بأى قيد ولا ملتزمة بأى علم سابق، ولا بأية قواعد أو ضوابط مما قرره علماء الأمة على توالى القرون.

والليالى من الزمان حبالى مثقلات، يلدن كل عجيب!

ومما ولدته الليالى الحاملة بالعجائب: ما يذهب إليه بعض

الناس الذين أقحموا أنفسهم على الثقافة الإسلامية، دون أن يتأهلوا لها بما ينبغى من علم القرآن والسنة ولغة العرب وعلومها، وأصول الفقه، وتراث السلف، فدخلوا فيما لا يحسنون، وخاضوا فيما لا يعرفون، وأفتوا بغير علم، وحكموا بغير بينة، ودعوا على غير بصيرة، وقالوا على الله ما لا يعلمون.

ومن ذلك: زعمهم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا كفاراً، فإن كانوا يقصدون أنهم ليسوا ملحدين منكرين للألوهية والوحى، فهذا ادعاء صحيح، ولا يجوز الخلاف فيه.

وإن كانوا يقصدون أنهم ليسوا كفاراً بدين محمد ورسالته وقرآنه – وهو المراد من إطلاق الكفر عليهم – فهذه دعوى باطلة من غير شك.

فإن كفر اليهود والنصارى من أوضح الواضحات بالنسبة لأى مسلم عنده ذرة من علم الإسلام، ومما أجمعت عليه الأمة على اختلاف مذاهبها وطوائفها، طوال العصور، لم يخالف فى ذلك سنى ولا شيعى ولا معتزلى ولا خارجى، وكل طوائف الأمة الموجودة اليوم من أهل السنة والزيدية والجعفرية والأباضية، لا يشكون فى كفر اليهود والنصارى وكل من لا يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا من المسلمات الدينية المتفق عليها نظراً وعملا، بل هى من (المعلوم من الدين بالضرورة) أى مما يتفق على معرفته الخاص والعام، ولا يحتاج إلى إقامة دليل جزئى للبرهنة على صحته.

وسر ذلك: أن كفر اليهود والنصارى لا يدل عليه آية أو آيتان، أو عشرة أو عشرون، بل عشرات الآيات من كتاب الله، وعشرات الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

كما يشهد بذلك كل من قرأ القرآن أو درس الحديث. وما كنت أظن أن أجد مسلماً يعارض صريح كتاب الله تعالى وقواطع النصوص برأيه وهواه.

وأنا أقصد بالحكم عليهم بالكفر: ما يتعلق بأحكام الدنيا، فالناس ينقسمون عندنا إلى قسمين لا ثالث لهما، إما مسلم وإما كافر، فمن ليس بمسلم فهو كافر، ولكن الكفار أنواع ودرجات، منهم أهل الكتاب ومنهم المشركون، ومنهم الجاحدون الدهريون، وكذلك منهم المسالمون، ومنهم المحاربون، ولكل منهم حكمه.

أما فيما يتعلق بأحكام الآخرة، وهل هذا الكافر ناج أو معذب؟ فهذا موكول إلى علمه تعالى وعدله. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فأما الكافر الذى لم تبلغه الدعوة أصلا، أو لم تبلغه بلوغا مشوقا يحمل على النظر والبحث أو حالت حوائل قاهرة دون دخوله فى الإسلام، فهذا لا يكون من المعذبين حسب وعد الله تعالى وعدله.

والقرآن إنما توعد الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، كبراً وعلواً، أو حسداً وبغياً، أو حبا للدنيا، أو تقليدا

أعمى الخ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥] .

يقول شيخنا شلتوت رحمه الله:

هذا، ولقد كنت عرضت بسرعة للحديث عن كفر أهل الكتاب فى أحد دروس صلاة التراويح فى شهر رمضان بالمسجد الكبير بالدوحة، ولم أكن أعلم أن هناك من عقب على هذا الأمر، حتى أخبرنى به بعض الإخوة الفضلاء من قريب، فسعيت إلى استحضاره، لأعلم ماذا قيل فى ذلك.

وقد عجبت كل العجب من هذا المقال المطول الذى نشرته صحيفة (الوطن) القطرية باسم (سراب الحافظ) وكنت أظنه (اسما مستعارا) وقلت فى نفسى: إن صاحب المقال اختار اسما يعبر عن حقيقة مقولته، فهى (سراب) بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا.

ولكن بعض الإخوة قالوا لى: إنه اسم حقيقى، وإنه اسم لسيدة وليس لرجل.

وعلى كل حال نحن نناقش القول، ولا يهمنا القائل. والحق أنى تحاملت على نفسى لأكتب هذا الرد، إيضاحًا للحقيقة، وإقامة للحجة، وإعذارًا إلى الله تعالى: ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

ولعل الأخت الكاتبة التبس عليها الأمر بسبب قراءة ناقصة للنصوص غير مستوعبة، أو قراءة انتقائية لبعض النصوص دون بعض، أو بسبب فهم غير سليم لبعض المفاهيم الإسلامية، لقصور فى ثقافتها الشرعية، وتكوينها العلمى فإن كانت تنشد الحق فستجد فى تعقيبى هذا ما يهديها إليه، وينير لها الطريق إن شاء الله، وإن كانت متعصبة لرأيها، فحسبى أنى بلَّغت وبينت ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

حقيقة الإيمان بالغيب:

تقول الكاتبة: إن المفهوم الأساسى للإيمان فى القرآن والسنة النبوية المشرفة هو: الإيمان بالغيب، أى الإيمان بالله واليوم الآخر، على ملة إبراهيم عليه السلام، والكفر هو عكس الإيمان بالغيب، أى الكفر بالله واليوم الآخر، والشرك بالله هو فى حكم الكفر به.

وذكرت فى ذلك آيات كريمة تدل على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونحن نرى معها ضرورة الإيمان بالغيب، ومنه الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكنا ننكر عليها: إخراجها الإيمان بالنبوة والرسالة من الإيمان بالغيب، مع أن الإيمان بكتب الله تعالى ورسله هو جزء من الإيمان بالغيب لا ريب فيه.

وكأن الكاتبة تتوهم أن الإيمان بالكتب هو إيمان بالورق

الذى كتبت عليه والمداد الذى كتبت به، فلهذا لم تعتبره من الإيمان بالغيب، وكذلك توهمت أن الإيمان بالرسل يعنى: الإيمان بأشخاصهم المنظورة والمتحركة أمام الأعين، فلهذا لم تعدها من الإيمان بالغيب. مع أن المقصود من ذلك هو: الإيمان بأن الله تعالى أوحى إلى رسله، وأنزل عليهم كتبًا، وبلغهم أوامر ونواهى، عن طريق ملائكته أو عن طريق الإلهام المباشر، وهذه كلها من أمور الغيب، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كلها من الإيمان بالغيب.

وقد استشهدت الكاتبة ببعض الآيات والأحاديث التى اكتفت فى مجال الإيمان بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ولم تذكر الإيمان برسل الله عز وجل، وحسبت أن ذلك حجة قاطعة لها. وهى مخطئة فى ذلك بيقين.

فالنصوص القرآنية والحديثية تجمل أحيانًا، وتفصل أحيانًا حسب المقام.

فأحيانًا تذكر كل متعلقات الإيمان وأركانه، مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾[البقرة: ١٧٧] ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾[البقرة: ٢٨٥].

وأحيانًا يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، كما فى الآيات التى ذكرتها الكاتبة وغيرها. ذلك: أن الإيمان بالله والإيمان بالجزاء الأخروى هما أعظم أركان الإيمان.

وأحيانًا يذكر الإيمان بالله ورسله، كما في قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١] ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الحديد: ١٩].

وأحيانا يذكر الإيمان بالله تعالى وبما أنزل على رسله، كما في قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ... ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وأحيانا يذكر الإيمان بما أنزل الله فقط، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء: ٤٧] وقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤١].

وأحيانا يذكر الإيمان بالله تعالى دون غيره من بقية الأركان، كقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ [الطلاق: ١١].

بل أحيانا يذكر كلمة الإيمان مجردة من متعلقاتها، كما في

النداء القرآني المتكرر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الحج: ٣٨] وهذا كثير في القرآن.

وهذا الاكتفاء في بعض المواضع ببعض أركان الإيمان لا يعني الاستغناء عن بقية الأركان، فالقرآن يفسر بعضه بعضا، ويصدق بعضه بعضا، فما أجمل في مكان فصل في آخر، وما أبهم في موضع بيَّن في غيره، وما أطلق في موقع قيد في موقع آخر، ولا بد أن يؤخذ القرآن كله، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

ومن ذلك: الاكتفاء بشهادة أن لا إله إلا الله في بعض النصوص، وذلك لأن الكلام كان مع مشركي العرب، والمعركة الأساسية معهم كانت على التوحيد، فإذا قالوا لا إله إلا الله، فقد استجابوا لمحمد ﷺ، ولم يفهم أحد في الأولين ولا الآخرين أنهم إذا قالوا: لا إله إلا الله وكفروا بمحمد، كانوا مؤمنين ناجين.

وكنت أود من الكاتبة التي ذكرت بعض أحاديث البخاري ومسلم التي اكتفت بإعلان (لا إله إلا الله) أن تذكر الأحاديث الأخرى التي اشترطت كل أركان الإيمان.

وذلك مثل الحديث المشهور المعروف بحديث جبريل، حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت» (١).

---

(١) انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث رقم (١٥).

ومثل ما رواه عنه ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..» (١).

وما رواه عنه عبادة بن الصامت: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» (٢).

وما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل، حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتى قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوك بذلك، فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات.. الحديث» (٣).

وما رواه أبو هريرة: «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» (٤).

---

(١) المصدر السابق: ١٥.

(٢) نفسه: ١٧.

(٣) رواه البخارى فى كتاب الزكاة. حديث (١٤٩٦)، ومسلم فى الإيمان.

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة. برقم ١٥٣.

ثم أن الكاتبة تشترط أن يكون إيمان المؤمن من أهل الكتاب على ملة إبراهيم عليه السلام، ولا أدرى من أين تعرف ملة إبراهيم، وأى مصدر تعتمد عليه فى ذلك؟

إن المصدر الفذ لمعرفة ملة إبراهيم هو المصدر الإسلامى، أى هو القرآن، وما يبينه من السنة، فالقرآن هو الوثيقة السماوية الوحيدة التى نأمن أن نأخذ منها معارفنا، دون أن نخشى تسلل الباطل والوهم والتحريف إليها.

اتباع المتشابهات:

ولقد كنت نبهت فى كتابى (المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة) وأكدت ذلك فى كتابى (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) على قضية فى غاية الخطر، وهى التعويل على (المتشابهات) من النصوص والإعراض عن (المحكمات) فهذا شأن الذين في قلوبهم زيغ، كما نص القرآن في الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران: ٧].

وليس هذا شأن الراسخين فى العلم، المتمكنين فى الدين، فإنهم يردون المتشابهات إلى المحكمات، ذلك أن المحكمات هى الأصل، وهى أم الكتاب ومعظمه، فيجب أن تفهم المتشابهات فى ضوئها، وفى إطارها، فهى التى تضبطها وتحكمها. ولكن هؤلاء – للأسف الشديد – يعكسون القضية، اتباعا لأهوائهم، أو لأهواء الذين لا يعلمون.

وقد رأينا الكاتبة – هدانا الله وإياها – تركض وراء المتشابهات من النصوص، تريد أن تتخذ منها أساسا لمقولتها، وتغفل النصوص المحْكمة القطعية، التى لا شبهة فى دلالتها، ولا يتطرق إليها احتمال يوهى من قيمتها. وبخاصة أنها تستند إلى هذه المتشابهات، ولا تعنى بنقل رأى علماء الأمة فى فهمها ودلالتها.. مرة واحدة نقلت عن ابن عطية ولم يغنها نقلها من الحق شيئا.

اعتمدت على قول الله تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٤٣] مع أن المقصود بحكم الله فى الآية هو حكم الرجم الذى حاولوا التهرب منه، كما ذكرت الباحثة ذلك نقلا عن صحيح البخارى.

واعتمدت كذلك على قوله سبحانه: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٧]. والمراد: الحكم بما أنزل الله فيه من البشارة بمحمد ورسالته، وغير ذلك من الأحكام والوصايا الأخلاقية.

وكان الأولى بها إن كانت تنشد الحق أن ترجع إلى أهل الاختصاص من الأئمة والمفسرين السلف والخلف، لمعرفة ماذا قالوا فى الآيتين.

أم تريد أن تقول: إنها لا تحتاج إلى ذلك؟ فهى أعلم من كل علماء الأمة، مفسرين ومحدثين ومتكلمين وفقهاء !!

ما قاله صاحب المنار فى تفسير الآيات:

اقرأ معى فى تفسير المنار حول الآيات التى استشهدت بها الكاتبة، وهى قوله تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٤٣]

يقول صاحب المنار: هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم. وهو أنهم أصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون إلى نبى جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به. أى وكيف يحكمونك فى قضية كقضية الزانيين أو قضية الدية والحال أن عندهم التوراة التى هى شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته لها؟ أى إذا فكرت فى هذا رأيته من عجيب أمرهم، وسببه أنهم ليسوا بالمؤمنين إيمانا صحيحا بالتوراة ولا بك، وإنما هم ممن جاء فيهم ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [الجاثية: ٢٣] فإن المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضا أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف أحوال عباده. وهؤلاء تركوا حكم التوراة التى يدَّعون الإيمان بها واتباعها لأنه لم يوافق هواهم.

وجاؤك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق هواهم، ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يوافق هواهم. فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك، ولا بمن أنزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن، وقد يقولون أنهم مؤمنون، وقد يظنون أيضا أنهم مؤمنون، غافلين عن كون الإيمان يقينا فى القلب، يتبعه الإذعان بالفعل، ويترجم عنه اللسان بالقول. ولكن اللسان قد يكذب عن علم وعن جهل فمن أيقن أذعن، ومن أذعن عمل، لأن الإيمان الإذعانى هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة، والإرادة هى المصرفة للجوارح فى الأعمال.

أما حكم الرجم فى التوراة التى بين أيدينا اليوم فهو خاص ببعض الزناة. قال فى الفصل ٢٢ سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها: (٢٢ إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل (٢٣) إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل فى المدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا – الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك) ثم ذكر أحكاما أخرى فى الزنا، منها قتل أحد الزانيين ومنها دفع غرامة والتزوج بالمزنى بها.

ومما يجب التنبيه له هنا أن دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما فى معناها على كون التوراة التى فى أيديهم وأيدى اليهود هى ما أنزله الله تعالى على موسى لم يعرض لها تغيير ولا تحريف.

ذلك أنهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن ما يوافق أهواءهم ويردون ما يخالفها جدلا. والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله، فالكتاب بين لنا أن عندهم التوراة أى الشريعة، وأن فيها حكم الله فى القضية التى تحاكموا فيها إلى النبى ﷺ وقد صدق الله تعالى وهو أصدق القائلين. وبين لنا أيضا أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به وأنهم إنَّما أوتوا نصيبا من الكتاب إذ نسوا نصيبا آخر وأضاعوه. وقد صدق الله تعالى فى ذلك أيضا. ولما خرجت أمة القرآن بالقرآن من الأمية وعرفوا تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله، إذ ظهر لهم أن اليهود قد فقدوا التوراة التى كتبها موسى ثم لم يجدوها، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجا بما ليس منها، والتوراة التى فى أيديهم تثبت ذلك، كما بيناه فى غير هذا الموضع.

ومنه تفسير أول سورة آل عمران وتفسير الآية ١٤ و ١٥ من هذه السورة:

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤] إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ**

﴿ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٧].

قال صاحب المنار: هذه الآيات من سياق التى قبلها والتى بعدها، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبنى إسرائيل، فأعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم الفساد، وبيان مثل ذلك فى الإنجيل وأهله، ثم الانتقال من ذلك إلى ما سيأتى من ذكر إنزال القرآن ومزيته وحكمة ذلك. ومنه يعلم أن العبرة بالاهتداء بالدين وأنه لا ينفع أهله الانتماء إليه إذا لم يقيموه، إذ لا يستفيدون من هدايته ونوره، إلا بإقامته والعمل به، وأن إيثار أهل الكتاب أهواءهم على هداية دينهم، هو الذى أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به. قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]. أى إنا نحن أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى في العقائد والأحكام خرج به بنوا إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وعلى نور أبصروا به طريق الاستقلال فى أمر دينهم ودنياهم ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أنزلنا قانونا للأحكام يحكم بها النبيون - موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل - طائفة من الزمان، انتهت ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام. وهم الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين على ملة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فالإسلام دين الجميع، وكل ما استحدثه اليهود والنصارى من أسباب التفرق فى الدين، فهو باطل وضلال مبين.

وإنما يحكمون للذين هادوا أى اليهود خاصة، لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة، ولذلك قال آخرهم عيسى: لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة. ولم يكن لداود وسليمان وعيسى من دونها شريعة.

وقال تعالى: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **وَلْيَحْكُمْ** ﴾ بصيغة الأمر، وهو حكاية حذف منها لفظ القول – ومثله كثير فى القرآن – أى وقلنا. ليحكم أهل الإنجيل بما أنزله الله فيه من الأحكام، أى أمرناهم بالعمل به، فهو مثل قوله فى أهل التوراة ﴿ **وكتبنا عليهم فيها** ﴾ كذا وكذا. وقرأ حمزة ﴿ **وَلْيَحْكُمْ** ﴾ بكسر اللام، أى ولأجل أن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. وجوزوا أن يكون قوله ﴿ **وهدى وموعظة** ﴾ مفعولا لأجله وعطف ﴿ **وَلْيَحْكُمْ** ﴾ عليه مع إظهار اللام لاختلاف الفاعل، وكيفما قرأت وفسرت لا تجد الاية تدل على أن الله تعالى يأمر النصارى فى القرآن بالحكم بالإنجيل كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين. ولو فرضنا أنه أمرهم بذلك بعبارة أخرى لتعين أن يكون الأمر للتعجيز وإقامة الحجة عليهم، فإنهم لا يستطيعون العمل بالإنجيل ولن يستطيعوه. وسيأتى لهذا البحث تتمة.

﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾

[المائدة: ٤٧] أى فأولئك هم الخارجون من حظيرة الدين الذين لا يعدون منه فى شىء، أو الخارجون من الطاعة له المتجاوزون لأحكامه وآدابه.

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨- ٥٠].

يقول صاحب المنار: هذه الآيات تتمة السياق: بين الله تعالى شأنه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بنى إسرائيل، وما أودعه فيهما من هدى ونور، وما حتم عليهم من إقامتهما، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما، فناسب بعد ذلك أن يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، ومكانه من الكتب التى قبله، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية - فتلك مقدمات ووسيلة، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ أى وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذى أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلهى عند الإطلاق، وهو القرآن المجيد – هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص [التوراة] وعن كتاب عيسى باسمه الخاص [الإنجيل] – ومثل هذا إطلاق لفظ النبى حتى فى كتبهم – وقوله: بالحق الخ معناه أنزلنا متلبسا بالحق مؤيدا به مشتملا عليه مقررا له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقا لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل أى ناطقا بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم.

وأما قوله: ومهيمنا عليه – أى على جنس الكتاب الإلهى – فمعناه أنه رقيب عليها وشهيد، بما بينه من حقيقة حالها، فى أصل إنزالها، وما كان فى شأن من خوطبوا بها، من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقى منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها. روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: «ومهيمنا عليه» يعنى أمينا عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب. وفى رواية عنه عند الفريابى وسعيد بن منصور والبيهقى ورواة التفسير المأثور قال: مؤتمنا عليه. وفى رواية أخرى قال: شهيدا على كل كتاب قبله. اهـ

هل تكفى (لا إله إلا الله) وحدها؟

واعتمدت الكاتبة كذلك على الأحاديث التى جعلت نجاة الإنسان وخلاصه فى قول «لا إله إلا الله» أى فى عدم الشرك، ولم تذكر شهادة أن محمدا رسول الله. وذكرت لنا جملة أحاديث صحاح وردت بذلك.

ولسنا ننكر صحة هذه الأحاديث، ولكننا ننكر ما فهمته منها، فهو فهم خاطىء لعدة أدلة:

أولها: أن فى مقابل هذه الأحاديث أحاديث صحاحا جمة أخرى، تشترط الشهادتين للنجاة وقد ذكرنا بعض هذه الأحاديث فى موضع آخر. والأمانة العلمية تقتضى أن تذكر هذه الأحاديث بجانب تلك، لا أن تنتقى ما يفيد دعواها، وتغض الطرف عما ينقضها.

وثانيها: أن بعض هذه الأحاديث هو اختصار من الرواة فى بعض الروايات، وفيها روايات أخرى تذكر الشهادتين جميعا كما فى حديث معاذ، فى أن من قال (لا إله إلا الله) دخل الجنة أو حرمه الله على النار، أو نحو ذلك، جاء فى بعض الروايات فى صحيح البخارى بالشهادتين جميعا، كما رواه فى كتاب العلم أنه ﷺ قال له: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، صدقا من قلبه، إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذن يتكلوا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثما [1].

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١ / ٣٠٠، ٣٠١ الطبعة السلفية حديث ١٢٨.

وثالثها: أن العلماء بينوا السر فى هذا الاختصار، فذكروا فى حديث «من قال: (لا إله إلا الله) دخل الجنة» قالوا: والمراد: مع قوله: «محمد رسول الله» لكن قد يكتفى بالجزء الأول من كلمتى الشهادة؛ لأنه صار شعارا لمجموعهما (١).

ورابعها: أن هذا الاختصار على شهادة التوحيد (أن لا إله إلا الله) أو على ترك الشرك (من لقى الله لا يشرك به شيئا) - لا يفيد الكاتبة فيما تدعيه للمسيحيين من صحة إيمانهم وأنهم من أهل التوحيد، أو أهل (لا إله إلا الله) إذ أن أهل هذه الكلمة هم أمة محمد وحدهم، أما المسيحيون فقد قال الله تعالى فى شأنهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١] نسبهم الله صراحة إلى الشرك، وإن لم يسموا (المشركين) تمييزا لهم عن عبدة الأوثان.

والمسيحيون معروفون أنهم من أهل التثليث، وأهل تأليه المسيح، لا أهل التوحيد، ومن أجل هذا، حكم القرآن عليهم بالكفر، كما فى قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...**﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [المائدة: ٧٣].

---

(١) فتح البارى جـ ١ / ٢٥٨.

ولهذا كان يختم الرسول ﷺ دعوته إلى ملوك النصارى وأمرائهم بالآية الكريمة: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ووجه القرآن إليهم هذا النداء الصريح: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ [النساء: ١٧١].

الإيمان بالرسل ركن أساسى فى العقيدة:

ومن المسلمات البدهية فى دين الإسلام، التى اعتبرها ركنا أساسيا من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحى، والتصديق برسالات الله، وبرسله إلى خلقه، الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فلا يصح إيمان مؤمن، ولا يدخل فى دين الله، ولا يقبل فى جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبى أرسل.

وهـذا أمر فى غاية الوضـوح فى كتـاب الله وسـنة رسوله، لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد فيه عقل، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبينا حقيقة البر وأركان الإيمان، ردا على اليهود الذين آثاروا ضجة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧]

وقال سبحانه: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحة، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٣٦] وقد أثارت الكاتبة شبهة حول هذه الآية، ونقلت – لأول مرة ولآخرة مرة – كلاما عن بعض المفسرين،

وأن المراد بالخطاب فيها المسلمون، فهم الذين آمنوا حقا. وأنا أسلم بهذا، ولكن أين هي من دلالة قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.. الخ** ﴾ فهذه تعم الجميع مسلمين وغير مسلمين، لأن لفظة (من) من ألفاظ العموم، كما هو معلوم.

ويقول تعالى: ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ [الحديد: ٢١].

وفي السنة في حديث جبريل المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر».

وإنما لم يذكر القرآن الإيمان بالقدر، لأنه من جملة الإيمان بالله تعالى، فهو إيمان بمقتضى الكمال الإلهي، وأنه علم كل شيء وأراده قبل أن يقع، ﴿ **وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المهم أن الإيمان بالرسل لا ريب فيه ولا خلاف عليه.

ولهذا ورد أن الناس يوم القيامة، يسألون سؤالين رئيسين:

أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟

والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟

ويقول تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ**

﴿ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

[القصص:٦٥]

ولقد رد القرآن على المكذبين، الذين استبعدوا أن يرسل الله إليهم رسولا ينبشرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٣].

وقال عز وجل على لسان هود عليه السلام: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾

[الأعراف: ٦٧ – ٦٩]

وقال تعالى فى شأن خاتم رسله محمد: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

وقد بين علماء المسلمين قديما وحديثا حاجة البشر إلى الوحى والرسالة، ومن أروع ما كتب عن ذلك فى العصر الحديث: ما كتبه الإمام محمد عبده فى (رسالة التوحيد).

المهم أن الإيمان برسل الله جميعا: عقيدة إسلامية أساسية، ومن كذب رسولا واحدا من رسل الله حقا، فكأنما كذب المرسلين جميعا.

وهذا ما يقرره القرآن حينما قال فى سورة الشعراء: ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ وهم لم يكذبوا إلا نوحا، ﴿ **كذبت عاد المرسلين** ﴾ وهم لم يكذبوا إلا هودا، ﴿ **كذبت ثمود المرسلين** ﴾ وهم لم يكذبوا إلا صالحا، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب. وإنما نسب إليهم تكذيب المرسلين، لأنهم كذبوا واحدا منهم، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه.

فمن زعم أنه آمن بالله تعالى، ولكنه كذب رسله أو واحدا منهم ممن ثبتت رسالته، فهو كاذب فى دعوى الإيمان إذ الإيمان الحق: ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيد بالآيات، ومن قال: أو من بواحد أو بمجموعة، ولا أو من بغيره، أو بغيرهم ممن هو مثلهم، أو أعلى منهم، فهو كاذب فى دعوى إيمانه، بل القرآن يقول عن مثله: إنه الكافر حقا.

اقرأ معى قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

وهاتان الآيتان نزلتا فى شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد. والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بالجميع،

وبكل نبي أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء: ١٥٢].

رسالة محمد للعالمين، ومنهم اليهود والنصارى:

ومما لا ريب فيه، ولا خلاف عليه، وهو من بدهيات الإسلام المعروفة للجميع: أن رسالة محمد ﷺ رسالة للعالم كله، وليست رسالة للعرب وحدهم، الذين بعث منهم ونشأ فيهم، واليهود والنصارى جزء من هذا العالم الذى بعث محمد ليهديه من الضلالة، ويخرجه من الظلمات إلى النور.

وهذا أمر مقطوع به، ومن ضروريات دين الإسلام، والأدلة عليه أكثر من أن تحصى.

ونحن نتبرع بذكر بعض الدلائل على ذلك:

يقول تعالى مخاطبا رسوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ١].

وفى أكثر من سورة جاء عن القرآن: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾.

وجاء فى ثلاث آيات من القرآن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣ والفتح: ٢٨ والصف: ٩] ومعنى هذا غلبة الإسلام على كل الأديان ومنها دين أهل الكتاب.

وأكثر من ذلك تصريح القرآن بإرسال محمد إلى أهل الكتاب خاصة، وإعلان هذه الحقيقة واضحة بارزة للعيان، يقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وتتوالى آيات القرآن الكريم تدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وبما أنزل الله عليه من الكتاب، مصدقا لما بين يديه من الكتب، ومهيمنا عليها، أى مصححا لها ومتمما، وتحذرهم من التخلف عن هذا الإيمان.

يقول الله تعالى لبنى إسرائيل:

﴿ يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤١].

فهنا يأمرهم الله تعالى أن يؤمنوا بما أنزل الله من القرآن مصدقا لما معهم، ولا يكونوا أول الكافرين به.

ويقول تعالى منددا بموقف اليهود من القرآن: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال تعالى مبينا موقف بنى إسائيل من رسل الله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٧ - ٩٠] فقد كان اليهود قبل البعثة المحمدية إذا تقاتلوا مع العرب يقولون لهم: قد قرب مبعث رسول من عند الله، سنؤمن به، ونقاتلكم معه، وننتصر عليكم.

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ..... وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٩٩ - ١٠١].

وفى سورة النساء يوجه الله سبحانه وتعالى نداء صريحا إلى أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل الله على محمد، ويهددهم بالمسخ واللعن إن لم يفعلوا. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] وهذا نص واضح كالشمس فى رابعة النهار.

ومن أجل ذلك أرسل النبى ﷺ رسله إلى ملوك أهل الكتاب من النصارى يحملون رسائله إليهم، يدعوهم فيها إلى

الإسلام، وترك ما هم فيه من الكفر والضلال، فكما أرسل إلى كسرى ملك فارس، ورئيس المجوس الذين يعبدون النار، أرسل إلى قيصر ملك الروم – وهو المعروف باسم (هرقل) – وكذلك أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس والى مصر من قبل الدولة الرومية، وإلى أمراء في بلاد الشام، وكلهم من أهل الكتاب من النصارى، يدعوهم أن يسلموا ليسلموا، ويؤتيهم الله أجرهم مرتين: مرة على دينهم قبل أن تبلغهم دعوة الإسلام، ومرة بدخولهم في دين الإسلام، ثم كان يختم رسائله إليهم بهذه الآية من سورة آل عمران: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [الآية: ٦٤].

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن هؤلاء النصارى قد خلطوا توحيدهم بالشرك بالله، واتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، فانحرفوا عن الصراط المستقيم لملة إبراهيم الحنيفية. وهذا واضح بيّن مما سجله القرآن عليهم من قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، إن الله هو المسيح بن مريم، وإن المسيح ابن الله، ويقول تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣١].

دلائل أخرى على كفر أهل الكتاب :

ومن الدلائل الأخرى على كفر أهل الكتاب قوله تعالى : ﴿ ولَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠]

وهذا يدل على أن لهم ملة أخرى غير ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم حنيفا، وهي التي قال الله لرسوله في شأنها ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

وقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٥١ – ٥٢] .

ومعلوم أن الله لا ينهى عن اتخاذ المؤمنين أولياء، إنما ينهى عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤] .

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨ –١٣٩] .

وفى السياق نفسه الذى نهى فيه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٥٩ - ٦١].

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

بين الله سبحانه أن أهل الكتاب ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، أى القرآن العظيم.

الإيمان لا يتجزأ:

بل الإيمان يوجب على كل مؤمن أن يأخذ بدينه كله، ولا يرفض شيئا أساسيا مقطوعا به من دينه، وإلا فهو مرتد عن دينه،

مارق منه، كما يمرق السهم من الرمية. وقد عاب القرآن على بنى إسرائيل إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، حين انتقدهم بشدة، موبخا لهم على أخذهم من الدين ما يروق لهم، وإعراضهم عما لا يحلو لهم، فأصبحوا هم الذين يتحكمون فى الدين، وليس الدين هو الذى يحكمهم ويضبط مسيرتهم.

يقول تعالى: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥ – ٨٦].

وعلى هذا الأساس، لو أن المسلم أنكر آية واحدة من القرآن الكريم، أو سورة قصيرة من سوره مثل: الإخلاص أو العصر أو الكوثر، أو إحدى المعوذتين، فإنه يكون كافرا مرتدا، والعياذ بالله.

ولو أنكر حكما واحدا من أحكام الإسلام القطعية، المعلومة من الدين بالضرورة، لكان كافرا مرتدا.

لهذا نكفر اليهود والنصارى:

فاليهود والنصارى كفار فى اعتقاد المسلمين؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة محمد، الذى أرسل إلى الناس كافة، وإليهم خاصة، كما ذكرنا فى الآيات الصريحة البينة ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ** ﴾ [المائدة: ١٩].

وقد آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، فهم بنص القرآن الصريح: ﴿ **هم الكافرون حقا** ﴾ .

وهم لم يكتفوا بالكفر برسالة محمد، والإعراض عنها، بل كازوا له ومكروا به، وصدوا عن سبيله. كما قال تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢] .

واليهود والنصارى كفار؛ لأنهم حرفوا كتبهم، وبدّلوا دينهم، وقالوا على الله بغير علم، وشوهوا حقيقة الألوهية فى كتبهم، ووصفوا الله بما لا يليق بجلاله وكماله، ونسبوا إليه نقص البشر، وعجز البشر، وجهل البشر، كما أنهم شوهوا صورة النبوة والأنبياء الذين جعلهم الله قدوة للبشر، وهداة لهم، فنسبوا إليهم من الرذائل ما لا ينسب لعوام الناس. وهذا ثابت فى (أسفار التوراة) التى يؤمن بها اليهود والنصارى جميعا، فكل ما يؤمن به اليهود فى شأن الألوهية والنبوة يؤمن به النصارى، لأن التوراة المحرفة الموجودة الآن فى أيديهم (كتاب مقدس) عند الطائفتين جميعا.

ويزيد النصارى على اليهود ما انفردوا به فى شأن المسيح، حيث اعتبروه إلها، أو ابن إله أو واحدا من ثلاثة أقانيم تكوّن (الإله). وهذا قد قرر القرآن بوضوح بيِّن، وبيان واضح: أنه كفر. كما قال تعالى فى سورة المائدة، وهى من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ [فى آيتين

من السورة آية :١٧ و آية : ٧٢] . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [آية : ٧٣] .

وفى سورة التوبة – وهى من أواخر ما نزل أيضا – جاء قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠ – ٣١] .

النصارى أبعد عن ملة إبراهيم من اليهود :

وأحب أن أنبه بعض الأخوة الذين يدافعون عن النصارى، أو عن المسيحيين كما يحبون أن يسموا أنفسهم اليوم، ويريدون أن يضفوا عليهم صفة الإيمان، ويدخلوهم فى زمرة المؤمنين بإطلاق، فى حين لا يصنعون ذلك مع اليهود .

وربما ضللهم عن الحقيقة سوء فهمهم لقوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾

[المائدة : ٨٢]

فقد فهموا – من شدة عداوة اليهود للذين آمنوا وهم المسلمون، وقرب مودة النصارى لهم – أن اليهود أبعد عن ملة إبراهيم، وأعرف فى الكفر من النصارى، مع أنه لا تلازم بين الأمرين.

فالواقع أن اليهود – وإن وقعوا فى التشبيه والتجسيم – لم يؤلهوا موسى، كما أله النصارى عيسى، ولم يقعوا فى التثليث، الذى سقط فيه المسيحيون.

وفى الشريعة: وجدنا اليهود يختنون أبناءهم، كما هى سنة إبراهيم، أما النصارى فلا يختنون.

ووجدنا اليهود يذبحون ما يأكلون من الحيوانات والطيور، فى حين لا يذبح النصارى، فقد قال لهم بولس: كل شىء طاهر للطاهرين.

واليهود يحرمون الخنزير والنصارى يبيحون الخنزير.

واليهود يحرمون التماثيل، والنصارى يجيزون التماثيل للمسيح الذى هو عندهم إله حق من إله حق، وللأنبياء والقديسين، ولذلك امتلأت كنائسهم بالصور والتماثيل.

تعبير أهل الكتاب لا يدل على الإيمان:

وتسمية القرآن اليهود والنصارى بـ (أهل الكتاب) لا يعنى أنهم مؤمنون، بل يعنى أنهم فى الأصل أهل دين سماوى، فلهم مزية على غيرهم، ونحن نعلم أن القرآن استخدم فى التعبير عن

اليهود والنصارى عدة صيغ، بعضها صيغة مدح، وبعضها صيغة ذم، وبعضها يحتمل الأمرين. وهذا قد عرف بالتتبع والاستقراء.

الصيغة الأولى: صيغة (الذين آتيناهم الكتاب) فهذا صيغة مدح في القرآن.

والصيغة الثانية: صيغة (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) فهذه صيغة ذم حيثما ذكرت في القرآن.

والصيغة الثالثة: صيغة (أهل الكتاب) أو (الذين أوتوا الكتاب) فهذه تذكر في موضع المدح حينا، وفي موضع الذم حينا آخر.

ولا بأس بذكر ما يدل على ذلك من كتاب الله تعالى:

ففي الصيغة الأولى نجد قوله تعالى: ﴿**الذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة: ١٢١] فالمقصود بهؤلاء: من هداهم الله إلى الإيمان بمحمد ورسالته وكتابه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**﴾ [القصص: ٥٢ – ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الصيغة الثانية نجد قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الآيتان: ٢٣ - ٢٤] وواضح أن المراد بهم اليهود، فهم الذين قالوا هذا القول.

وفي سورة النساء" ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [الآيتان: ٥١ - ٥٢] وواضح أيضا أن المراد بهم اليهود، كما دل السياق، ودلت أسباب النزول، حين قال مشركو مكة الوثنيون لليهود: أنحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: بل أنتم.

وفي الصيغة الثالثة، نجد في المدح قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ *

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤] ولكن المدح - كما هو واضح - لجماعة منهم.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] والمدح أيضا لجماعة منهم، هم الذين آمنوا بالكتابين.

وفى الذم نجد قوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥]

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠ - ٧١].

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا

تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

وسورة آل عمران جاء نصفها الأول في محاجة أهل الكتاب، وخصوصا النصارى، بعد زيارة وفد نصارى نجران للرسول ﷺ، وقد أكرم وفادتهم، وأحسن معاملتهم، حتى فرش لهم عباءته، وأدخلهم مسجده، وأذن لهم أن يصلوا فيه. ولكنه لم يحكم عليهم بأنهم مؤمنون، بل نزلت الآيات تفند شبهاتهم، وتقيم عليهم الحجة البالغة، وتبين بطلان دعاويهم في ألوهية المسيح أو بنوته لله، وجاء في ذلك قوله تعالى في السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .. ﴾[آل عمران: ٦٣ – ٦٥].

وفي السورة: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] وسورة آل عمران أكثر سورة ذكرت فيها كلمة (أهل الكتاب).

وأطفال المسلمين يحفظون من قصار السور: سورة (البينة) وفيها يقول الله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ وفيها أيضا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾
[البينة: ١ – ٢ – ٦]

نبهت الآيتان هنا، وما شابههما بأن هناك كفارا من أهل الكتاب، وكفارا من المشركين، وكلاهما من أهل الكفر.

ونجد نحو ذلك في صيغة ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ فبعضها فيه مدح، مثل: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وبعضها يحمل الذم، مثل: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ وفيها ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

خليط من الأغلاط والأوهام:

تقول الكاتبة: لقد كلف الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالإيمان بالشرائع التى أوحيت إلى الإنسانية من قبل القرآن الكريم، لدخول ذلك ضمن دائرة استطاعتهم، انطلاقا من كون القرآن ركز فيما يقارب ثلثيه على قصص الأنبياء والرسل السابقين، خصوصا قصص إبراهيم وموسى وعيسى« عليهم السلام، والكتاب الحق الذى نزل إليهم، والتوراة والإنجيل.

أما المؤمنون أصحاب الشرائع السابقة . . فمن المنطق ألا يكلفهم تعالى الإيمان بما أنزل إلى الإنسانية من شرعة بعد شرعتهم، أى بشرعة القرآن الكريم، حيث يكون ذلك خارج دائرة استطاعتهم، انطلاقا من كون قصص القرآن كلها وأحكامه، لم تذكر فى كتبهم المقدسة، وما ذكر فيها سوى بشارة ببعثة الرسول الكريم أحمد ﷺ .... الخ .

أقول : هذا الكلام يشتمل على أغلاط وأوهام كثيرة، التبس على صاحبه فيه الحق بالباطل، والهدى بالضلال . نحاول إجمالها فيما يلى :

أولا : كأن الكاتبة تظن أن أمة محمد هم العرب أو الوثنيون منهم، ناسية أن أمة محمد هم العالم كله، هم أمة الدعوة، والله تعالى يقول : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

ثانيا : ترى الكاتبة أن الإيمان بما أنزل الله من كتب وما بعث من رسل، يخرج عن دائرة استطاعة البشر، وهى دعوى لا تستند إلى أى منطق دينى أو عقلى، أى صعوبة فى أن يعتقد المرء أن الله لم يدع عباده هملا، ولم يتركهم سدى، وإنما بعث إليهم رسله مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه . هذا هو المطلوب من المكلفين أن يؤمنوا به، فهل فى هذا صعوبة، بله الاستحالة؟!

إن المهم هنا هو الإيمان بالمبدأ، أما أسماء الرسل، فيؤمن بما جاء به الوحى المعصوم منهم. وأما الإيمان برسالة محمد ﷺ، فهو إيمان برسالة قامت البراهين الناصعة على صدقها، وأقرب الناس إلى تصديقها هم أهل الكتاب، فقد جاء محمد مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، وفى هذه الكتب السابقة من البشائر والإشارات ما يجعل تصديقه أمرا قريبا ومعقولا جدا، لأنه سيجد دينه وقد صفى وهذب وتمم، فكيف يعرض عنه؟!

فإذا كان الوثنى والمجوسى والملحد، مطالبا بالإيمان بمحمد، فأولى بذلك أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾[العنكبوت: ٤٧]. ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [الأنعام: ١١٤].

ثالثا: إن الإيمان حقيقة واحدة لا تتغير بتغير العصور، لأنه يتضمن الإعتقاد الجازم بحقائق ثابتة عن الله تعالى، وعن الكون المخلوق الذى نعيش فيه، وعن الإنسان المستخلف من الله فى هذا الكون وعن مصيره، وعن رسالته، وعلاقته بخالقه وبنفسه وبما حوله ومن حوله.

وهذه حقائق لا تكذب ولا تتطور، فالمفروض أن يطالب المؤمنون فى كل عصر بالإيمان بهذه الحقائق.

رابعا: كيف يكون من المنطقى ألا يكلف أصحاب الكتب

والشرائع السابقة اتباع شرعة القرآن، والله تعالى لم يتكفل بحفظ كتبهم، بل استحفظها أهلها، ولهذا حرفت تلك الكتب وبُدِّلت، وذلك لأن هذه الشرائع كانت محدودة فى المكان وفى الزمان، فكل هؤلاء الرسل بعثوا إلى أقوامهم، لا إلى الناس كافة، وبعثوا لهم فى فترة معينة، لا برسالة خاتمة ولا خالدة، بل كل منهم بشَّر بنبى يأتى بعده.

استدلال بما يدل على عكسه:

تقول الكاتبة: إن القرآن يدعو كل أمة للعمل بما جاء فى شرعتها من مبادئ وأحكام وفرائض، إن كانت راغبة عن شرعة القرآن الكريم.

وكأنها تعتبر العمل بشرعة القرآن أمرا تطوعيا أو اختياريا.

وقد استدلت على دعواها بما ينقضها، لا بما يؤيدها. فذكرت قول الله تعالى لرسوله: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...**﴾ [المائدة: ٤٨].

(أ) فهذه الآية تقرر أن القرآن مهيمن على ما سبقه من الكتب، فهو يحكمها ولا تحكمه، وهو الذى يصحح ما دخلها من أغلاط البشر، وأهواء البشر.

(ب) ثم هى تأمر النبى ﷺ أن يحكم بينهم بما أنزل الله، أى بحكم القرآن الذى حفظه الله من التحريف والتبديل.

(جـ) وهى بعد ذلك تحذره من أن يتبع أهواءهم، ويدع هدى الله سبحانه.

(د) وقد أكد هذه الآية آية تالية بعدها تقول: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائد: ٤٩، ٥٠].

وتستدل الكاتبة أيضا على دعواها بقول الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٦٨].

تقول: تطلب الآية من أهل الكتاب إقامة التوراة والإنجيل، وألا يزيدوا على أحكامها، أى الحكم بما جاء إليهم فيهما، إن كانوا راغبين عن اتباع شرعة القرآن الكريم التى أنزلت على محمد ﷺ.

وأقول متعجبا: كيف أغفلت الكاتبة هذه الفقرة الواضحة

فى الآية، وهى قوله تعالى: بعد التوراة والإنجيل: (وما أنزل إليكم من ربكم) أى القرآن الكريم، فليسوا على شىء من الدين يعتد به إذا لم يقيموا ما بقى من أحكام التوراة والإنجيل وما أنزل الله من أحكام القرآن مصدقا ومصححا ومتمما.

ولا يقال: كيف يكون القرآن منزلا إليهم، وإنما أنزل إلى أمة محمد؟ ونقول: هم من أمة محمد ﷺ، أعنى: أمة الدعوة، لا أمة الإجابة، كما هو معروف عند علماء المسلمين من قديم، لأن محمدا مبعوث إلى الناس كافة وهم منهم، فهم مخاطبون بقوله تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣].

فهذه آيات محكمات صريحات الدلالة، لا يجوز أن تعرض عنها وتتعلق بآيات متشابهات معروفة عند أهل العلم المراد منها مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٤٣]

المسيحيون والتثليث:

تريد الكاتبة: أن تبرئ المسيحيين من تأليه المسيح، ومما هو معروف عندهم من عقيدة التثليث، والقول بأن المسيح ابن الله، وتدلل عل ذلك بثلاثة أدلة:

١ – قول الوصية الأولى من الوصايا العشر: (أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك إله غيرى).

وهذه حجة عليهم لا حجة لهم، لأنهم تركوها وراءهم ظهريا، واتخذوا آلهة أخرى من خلقه.

٢ – تقول: إذا كان المسيحيون يصفون السيد المسيح بـ (ابن الله) فإنهم يصفون المؤمنين جميعا بأبناء الله، كما فى قول إنجيل متى: (طوبى لصانعى السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون) ونحن نقر هذا، ولكنهم لا يعترفون بأن المسيح كسائر الناس، إنه (الرب) إنه إله حق من إله حق. ومن المصطلحات المعروفة المكرورة عندهم: الإله الأب، والإله الابن.

فهل تكون الكاتبة ملكية أكثر من الملك، أو تقوّل المسيحيين ما لا يقولونه؟

تحريف الإنجيل وتبعة المسيحيين المعاصرين:

٣ – تقول الكاتبة: إذا سلمنا جدلا!! أن الأناجيل محرفة، فإنه يمتنع على عدل الله المطلق أن يعاقب المسيحي اليوم بما اقترف آباؤه وأجداده من تحريف للكتب فى قديم الزمان. حيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

وأنا أعجب من قول الكاتبة: إذا سلمنا جدلا، كأنها تنكر ذلك، وقد أثبت المسلمون من قرون مضت تحريف التوراة والإنجيل، وكذلك فى العصر الحديث، كما يتجلى ذلك فى الكتاب العلمى القيم (إظهار الحق) للشيخ رحمه الله الهندى، وكما وضح ذلك فى مناظرات وكتابات أحمد ديدات. كما أن

الباحثين المحايدين من الغربيين أنفسهم قد كتبوا فى ذلك كتابات كثيرة لها وزنها.

ويكفى أن الإنجيل الذى أنزل الله على عيسى لا يوجد الآن، إنما توجد سير له مشتملة على بعض مواعظه، كتبها بعض تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه، أعنى الأناجيل الأربعة المعروفة حاليا، والمعروفة بأسماء مؤلفيها: متى ومرقس ولوقا ويوحنا. والتى لا توجد نسخها بلغتها الأولى التى كتبت بها، إنما توجد ترجمات لها، وهذه الأربعة اختيرت من بين سبعين إنجيلا، وأحرقت الأخرى. كما هو معروف فى تاريخ المسيحية.

على كل حال لندع ذلك، ولنبحث فى عدل الله فى تحميل المسيحى وزر آبائه الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، أقول: هذا بالمنطق المسيحى مقبول. فهم يحملون البشرية جمعاء وزر معصية أبيهم الأول آدم – حين أكل من الشجرة – مع أن هذا حدث منذ ألوف السنين التى لا يعلمها إلا الله، ولا شهدها هو ولا آباؤه، ولا أجداده. ومع هذا قال المسيحيون: إن كل آدمى يولد وفى عنقه خطيئة أبيه آدم!

أما بمنطق الإسلام فلا يحمل أحد وزر غيره، إلا أن يرضى عن ذنبه أو يتبناه أو يدافع عنه، أو يستمر فى طريقه، ففى هذه الحالة يتحمل وزر نفسه، وإن كان امتدادا لعمل غيره ممن سبقه. وعلى ضوء هذا نجد القرآن يخاطب بنى إسرائيل فى أيام الرسول، ويحملهم آثام أجدادهم، ويخاطبهم كأنهم هم الذين اقترفوها،

لأنهم رضوها، بل مضوا على سنة آبائهم، وافتخروا بهم، وعظموهم، فكان لا بد أن يبوؤوا بإثمهم. يقول تعالى: ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ... وَإِذْ قُلْتُمْ: يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ...** ﴾ [البقرة: ٥١]. إلى آخر الآيات. التى تحملهم جرم آبائهم، لأنهم على آثارهم مقتدون.

موقف الإسلام من أهل الكتاب والمشركين:

تقول الكاتبة: عندما يصدر الفقه الإسلامى حكما عاما بالكفر أو بالشرك بالله على أهل الكتاب جميعا، فإن هذا يجعلهم فى مرتبة واحدة مع الكفار والمشركين، حيث لا ينفع فى دين الإسلام منح منزلة خاصة لأمة ما، مع فسدان عقيدتها. مما يعطى التبرير الكافى لأعمال التشدد والعنف، والاقتتال الطائفى ضد إخواننا المسيحيين، حيث يطبق عليهم قصار النظر من المسلمين قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ...** ﴾ [التوبة: ٥].

ونقول للكاتبة: ليس علماء الفقه الإسلامى هم الذين أصدروا هذا الحكم على أهل الكتاب بالكفر، بل أصدره الله

سبحانه فى آيات كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولهذا أجمع عليه علماء الفقه، وعلماء التوحيد، وعلماء التفسير، وعلماء الحديث، وكل علماء الأمة فى شتى الاختصاصات.

وقد ترتب على هذا الحكم الأصلى فروع كثيرة، كما فى الميراث حيث لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم، فلا يرث اليهودى والنصرانى من المسلم، ولا العكس، وكذلك فى الشهادة وفى الجنايات (لا يقتل مسلم بكافر) – كما أخذ بظاهره جمهور الفقهاء – وغيرها.

وهذا لا يعنى أنهم فى مرتبة واحدة مع (المشركين) الذين ذكرهم القرآن، وعنى بهم (الوثنيين) من العرب وأمثالهم، وهم الذين نزلت فيهم آية سورة التوبة ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ . . . الآية** ﴾ [التوبة : ٥]

فإن القرآن حرم نكاح المشركات، وأجاز نكاح الكتابيات، وهذه قمة فى التسامح مع المخالفين فى العقيدة لم يرق إليها دين من الأديان.

كما أمر القرآن بجدالهم بالتى هى أحسن، كما قال تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦].

ثم إن الكفار – حتى المشركين منهم – ليسوا فى موقف واحد مع الإسلام، فمنهم المسللون، ومنهم المحاربون. وحسب

موقفهم من الإسلام والمسلمين، يتحدد موقف الإسلام منهم. وهذا قد وضحته آيتان فى كتاب الله تعالى، تعتبران بمثابة الدستور فى معاملة غير المسلمين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة: ٨ – ٩].

قد بين الله تعالى هنا أنه لم ينه عن البر بالمخالفين فى الدين وإقامة القسط – وهو العدل – معهم، وإن كانوا مشركين، كالذين نزلت فيهم آيتا سورة الممتحنة. وقد استخدم القرآن لفظة (البر) وهى الكلمة التى تستخدم فى أعظم الحقوق بعد حق الله، وهو حق الوالدين، فيقال: بر الوالدين. وهذا يرد على قول الكاتبة: لا ينفع فى دين الإسلام منح منزلة خاصة لأمة ما، مع فساد عقيدتها.

وسيأتى مزيد بيان لأسس التسامح الإسلامى مع المخالفين، مع اعتقاد المسلم بطلان دينهم وفساد عقيدتهم.

وقد رأينا كثيرين من المسلمين تزوجوا مسيحيات وبقين على دينهن، وعشن فى كرامة وقرة عين مع أزواجهم من المسلمين.

ومفهوم ما ذكرته الكاتبة: أنها تبرر التشدد والعنف مع

المشركين والوثنيين ولا تجيزه مع أهل الكتاب وحدهم! ونحن لا نجيز العنف مع أحد إلا بشروطه وضوابطه، ولو كان وثنيا مشركًا.

الفقه الإسلامى وإباحة الزواج بالكتابيات:

تقول الكاتبة: يواجه الفقه الإسلامى إشكالية حقيقية، حين يعتبر اليهود والنصارى كفارا أو مشركين بالله على وجه العموم، فى الوقت الذى يبيح فيه زواج المسلم من نسائهم. إذ كيف يصح هذا مع تحريم زواج المسلمين من الكفار والمشركين والمشركات فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ونقول للكاتبة: إن الفقه لم يواجه أى إشكالية فيما ذكرت. فالقرآن حرم زواج (المشركات) ولم يحرم زواج الكتابيات وإن كن كافرات. ولو رجعت الكاتبة إلى القرآن ذاته لوجدته يعبر عن (عباد الأوثان) بالمشركين والمشركات، أو الذين أشركوا، وهذا وضح فى مثل قوله تعالى: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٠٥]

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]

فقد دل عطف المشركين على الذين كفروا من أهل الكتاب أن المشركين صنف آخر غيرهم، إذ العطف – كما هو معلوم – يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧] ذكرت الآية مع الذين آمنوا أصحاب الملل المختلفة، من اليهود والنصارى من أهل الكتاب، والمجوس عباد النار، والذين أشركوا عباد الأوثان. فدلت على أن الذين أشركوا صنف آخر غير اليهود والنصارى.

وإباحة الإسلام زواج المسلم من كتابية – مع أنه يعتقد كفرها – يعتبر قمة فى التسامح مع المخالفين، ونقلة نوعية في التعامل معهم، وهذا هو الرائع حقا: أن يتزوج المسلم من مسيحية، وإن كان يؤمن أن عقيدتها فى التثليث وتأليه المسيح وغيرها: باطلة، وأن من اعتقدها فهو كافر، ومع هذا يتخذها شريكة

حياته، وربة بيته، وأم أولاده، ويسكن إليها، ويكون بينهما مودة ورحمة، كما شرع الله عز وجل. ثم يترتب على ذلك الزواج قرابة المصاهرة وآثارها، حيث يكون أهل الزوجة أحماء زوجها، وأبوها جد أولاده، وأمها جدتهم، وأخوها خالهم، وأختها خالتهم، وهؤلاء لهم حقوق ذوى القربى. وأولى الأرحام.

هذا ما عليه جماهير المسلمين منذ عهد الصحابة، ولم يخالف فى ذلك إلا عبد الله بن عمر، الذى أنكر زواج المسيحية، واعتبرها مشركة، وقال: وأى شرك أكبر من أن تقول: إن ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله؟!

حقائق يجب التنبيه عليها:

وأود أن أنبه هنا على جملة حقائق قد يغفل عنها بعض الناس، وهى من الأهمية بمكان.

كفر أهل الكتاب ليس كفر إلحاد:

الأولى: أن الكفر الذى ننسبه إلى أهل الكتاب ليس هو كفر الجحود بالألوهية، فكفرهم ليس كفر إلحاد، ككفر الشيوعيين، والماديين بصفة عامة، الذين ينكرون كل ما وراء الحس، وما وراء المادة، ولا يؤمنون بأى غيب. وذلك أنهم يؤمنون بالله فى الجملة، أى وإن كان فى إيمانهم به شوائب تنكرها العقيدة الإسلامية. كما أنهم يؤمنون بالوحى والنبوة فى الجملة أيضا، وإن كفروا بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وأساؤوا إلى صورة الأنبياء فى

كتبهم. وكذلك يؤمنون بالآخرة والجزاء الإلهى فيها، وإن دخل على هذه العقيدة ما دخل عليها مما لا يوافق عليه الإسلام.

وهذا هو الذى جعل لأهل الكتاب منزلة خاصة فى الإسلام دون غيرهم من أصحاب الملل الوثنية والوضعية، وأجاز الإسلام مؤاكلتهم ومصاهرتهم، وهذه قمة فى التسامح لم يصل إليها دين من الأديان.

ومن أجل هذا نزلت الآيات الأولى فى سورة الروم تبين أن الروم – وهم نصارى – أقرب إلى المسلمين من الفرس، وهم مجوس يعبدون النار. فقال تعالى: ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ١ – ٥]

ومن أجل ذلك رحبنا بالدعوة إلى الحوار بين الأديان الكتابية، لوجود أرضية مشتركة يمكن أن تجمع بينهم، وتجعل منهم كتلة ضد الإلحاد وضد الإباحية، والانسلاخ من الإيمان والفضائل.

مخاطبة اليهود والنصارى بأهل الكتاب:

الحقيقة الثانية: أننا وإن قلنا: أن اليهود والنصارى كفار بديننا، فلا يجوز أن نناديهم بـ (يا أيها الكفار أو الكافرون) لأن

القرآن الكريم لم يناد أى طائفة من طوائف المشركين ولا غيرهم بوصف الشرك أو الكفر، بل يقول فى نداء المشركين: (يا أيها الناس) أو (يا بنى آدم) أو نحو ذلك.

كما ينادى اليهود والنصارى بهذا النداء الذى يقرب بين القلوب ولا يباعدها (يا أهل الكتاب) .

ولم يجىء فى القرآن (يأيها الذين كفروا) إلا فى آية واحدة فى سورة التحريم، حيث ينادى بها الكفار بعد دخولهم النار، والعياذ بالله، يقال لهم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التحريم: ٧] .

وجاءت آية واحدة تخاطب الرسول بقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ [الكافرون : ١ ، ٢] وكان لها مناسبة أراد الله تعالى بها أن تكون حاسمة فى سد الباب أمام المشركين، وقطع أطماعهم فى استجابة الرسول لهم: أن يعبد آلهتهم فترة من الزمن، ويعبدوا إلهه فترة مماثلة. فاستخدم هذه اللفظة فى تلك المرة ولم تتكرر بعد ذلك فى القرآن مكيه أو مدنيه.

أساس التسامح الإسلامى:

والحقيقة الثالثة، هى كيف نوفق بين اعتقادنا بكفر أهل الكتاب ودعوتنا إلى التسامح معهم؟

وأقول هنا: أن كل ذى دين، بل كل ذى مبدأ: يؤمن بأنه

على الحق، وأن من عداه على الباطل، أى كما قال القرآن: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فهو يؤمن بدينه ومبدئه، ويكفر بما سواه، وإلا كان إيمانه مدخولا.

فمن آمن بالمادية كفر بالألوهية، ومن آمن بالألوهية كفر بالمادية، ومن آمن بالرأسمالية، كفر بالشيوعية، ومن آمن بالشيوعية كفر بالرأسمالية. ومن آمن بالديمقراطية كفر بالدكتاتورية، والعكس بالعكس.

ومن هنا نجد المسيحي يؤمن حسب عقيدته بأن المسلمين كفار، لا يعنى أنهم كفار بالله، بل كفار بعقيدته المسيحية بما فيها من التثليث وغيره.

وهذا صحيح، وإذا لم يعتقدوا ذلك فى المسلمين كانوا كاذبين فى دينهم، أو مجاملين للمسلمين.

وكذلك يعتقد المسلم في النصارى أو المسيحيين بأنهم كفار، ولا يعنى هذا أنهم ملحدون، بل كفار بعقيدة الإسلام، وبرسالة محمد.

ولأن المسيحيين يعتبرون المسلمين كفارا وضالين، يبذلون جهودا جبارة من أجل تنصيرهم، وإخراجهم من ضلالتهم، ولا يجهل أحد الجهود التنصيرية – أو التبشيرية كما يسمونها – التى بدأت مع عصر الاستعمار، وسارت فى ركابه، وتمتعت بحمايته،

فى البلاد الإسلامية المختلفة فى آسيا وإفريقيا، حتى إنهم عملوا لتنصير إندونيسيا – أكبر بلد إسلامى – في مدة خمسين سنة، ووضعوا لذلك خططهم، وكثفوا نشاطهم. ولكن الله تعالى خيب سعيهم، وأبطل كيدهم، وإن حققوا بعض النجاح.

ولا زالوا إلى اليوم يعملون وينفقون ويحاولون، وقد تابعنا مؤتمر المبشرين الأمريكان الذى عقد فى ولاية (كلورادو) بأمريكا سنة ١٩٧٨، تحت عنوان (تنصير المسلمين فى العالم) وقدم أربعين دراسة فى ذلك، وأنشأ معهدا لذلك سموه (معهد زويمر) ورصدوا لذلك ألف مليون دولار.

ونحن لا نلومهم لاعتبارنا كفارا ضالين، لأن هذا طبيعة كل دين، كما قلنا: أن يعتقد المؤمن به أنه وحده على الهدى، وأن غيره على الضلال، إلا إذا نافق أو جامل.

كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد كفره؟ :

وهنا يتبادر سؤال مهم يحتاج إلى جواب.

وهو: كيف حل الإسلام هذه العقدة؟ أعنى كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد أنه كافر فى دينه؟

هنا تتجلى حكمة الإسلام وعظمته فى معاملة غير المسلم برغم اعتقاد المسلم بكفره. وهذا ما بينته من قديم فى كتابى (غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى) تحت عنوان (أساس التسامح الإسلامى).

مفاهيم إسلامية للتسامح مع المخالفين:

ولب هذا التسامح أن الإسلام زود المسلم بفلسفة معينة أو بمفاهيم فكرية تزيح من صدره النفور والغضب والضيق بغير المسلمين، وتفتح له باب حسن العشرة معهم، والبر بهم، والإقساط إليهم، فإن الله يحب المقسطين.

أهم هذه المفاهيم هى:

١ – اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيا كان دينه أو جنسه أو لونه. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ [الإسراء: ٧٠] وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العملية ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبى ﷺ فقام لها واقفا، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودى! فقال: «أليست نفسا؟!» بلى ولكل نفس فى الإسلام حرمة ومكان. فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل!

٢ – اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى، الذى منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩]

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]

قال المفسرون: أى وللاختلاف خلقهم، لأنه منحهم العقل والإرادة، فاقتضت مشيئته أن يختلفوا.

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب. كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه. ولهذا لا يفكر المسلم يوما أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩]

٣ – ليس المسلم مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله فى يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه فى يوم الدين. قال تعالى: ﴿ **وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩]. وقال يخاطب رسوله فى شأن أهل الكتاب: ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد قال عيسى عليه السلام لربه يوم القيامة: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ**

﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد فى نفسه أى أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد.

٤ - إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: «دعوة المظلوم - وإن كان كافرا - ليس دونها حجاب» (١).

وقال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

* * *

(١) رواه أحمد فى المسند.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى	٥
حقيقة الإيمان بالغيب	٩
اتباع المتشابهات	١٤
ما قاله صاحب المنار فى تفسير الآيات	١٦
هل تكفى (لا إله إلا الله) وحدها	٢٣
الإيمان بالرسل ركن أساسى فى العقيدة	٢٥
رسالة محمد للعالمين ومنهم اليهود والنصارى	٣٠
دلائل أخرى على كفر أهل الكتاب	٣٥
الإيمان لا يتجزأ	٣٦
النصارى أبعد عن ملة إبراهيم من اليهود	٣٩
خليط من الأغلاط والأوهام	٤٦
استدلال بما يدل على عكسه	٤٩
المسيحيون والتثليث	٥١
تحريف الإنجيل وتبعة المسيحيين المعاصرين	٥٢
الفقه الإسلامى وإباحة الزواج بالكتابيات	٥٧
حقائق يجب التنبيه عليها	٥٩
كفر أهل الكتاب ليس كفر إلحاد	٥٩
مخاطبة اليهود والنصارى بأهل الكتاب	٦٠
أساس التسامح الإسلامى	٦١
كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد كفره	٦٣
مفاهيم إسلامية للتسامح مع المخالفين	٦٤
الفهرس	٦٧

obeikandl.com

رقم الايداع ٩٩/١١٤٣٢

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-225-137-X

obeikandl.com